الرسائل :

تطورت الفنون النثرية في العصر العباسي تطوراً ملحوظاً . وقطعت شوطاً بعيداً في مضمار الرقي والتقدُّم بعد الانفتاح الكبير على أمم أخرى وتمازج الثقافات . وكما هو معروف فإنّ الإنشاء رهين برقي الحياة وتطورها . وكانت الرسائل بأشكالها المختلفة في مقدمة هذه الفنون ازدهاراً واتساعاً ؛ لأنها مرتبطة أشد الارتباط بحياة الناس جميعاً ولا سيما العاملين في مرافق الدولة والقائمين بشؤون السلطة . يقول الدكتور طه حسين : « ليس غريباً اذن أنْ تتغير طبيعة النثر في آخر القرن الثاني وطول القرن الثالث . وأن تكثر موضوعاته . وأن يزاحم الشعر حتى يسبقه . فقد كان النثر لا يكاد يتجاوز النثر السياسي والتاريخ ... أما في القرن الثاني وطوال القرن الثالث فقد أصبح النثر فناً تؤدى فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها ... وهذا طبيعي مفهوم لأنّ النثر أيسر وأبسط . وهو أقدر وأوسع للمعاني . فيستطيع الكاتب اذا عرض لفن أو لمسألة أن يتناولها من جميع وجوهها دون أن يحول بينه وبين الاتجاه فيما يريد وَزْنٌ أو قافية . أو شرط من هذه الشروط التي كانت تقيد الشعراء . ونجد هذا واضحاً عندما نقرأ الرسائل الكثيرة التي صدرت عن كُتاب القرن الثالث »(٥٩٤)

ويمكن تقسيم الرسائل آنذاك الى نوعين . الأول : الرسائل الديوانية أو ما يسمّى بالمكاتبات الرسمية . وغالباً تكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد بأقلام المتخصصين بصنعة الكتابة . وهم كما قال الجاحظ : « لا يقفون الاّ على الألفاظ المتخيرة . والمعاني المنتخبة . وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة . والديباجة

(٥٩٣) النصّان في أمالي المرتضى ١ : ١٣٧ .
(٥٩٤) من حديث الشعر والنثر ص ٥٥ .

الكريمة . وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد . وعلى كلّ كلام له ماء ورونق . وعلى المعاني التي اذا صارت في الصدور عمّرتها وأصلحتها من الفساد القديم . وفتحت للسان باب البلاغة . ودلّت الأقلام على مدافن الألفاظ . وأشارت الى حسان المعاني(٥٩٥) »

وكانت الرسائل اما طويلة تميل الى الشرح والتفصيل . مثل رسالة الخليفة المعتصم الى ملوك المسلمين بعدما قبض على بابك الخرمي وقضى على ثورته التي دامت عشرين عاماً(٥٩٦) أو قصيرة موجزة نستطيع أن نطلق عليها عبارة « ماقلّ ودلّ » مثل الرسالة التي كتبها يوسف بن صَبيح عن عبدالله بن علي الى ابن أخيه السفاح يُعزيه عن ابنٍ له : « أما بعد . فإنّ أحقّ الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جلّ وعزّ مَنْ كان إماماً لخلق الله وخليفةً لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فتعزّ أميرَ المؤمنين بفهمك . وارجعْ في وعدِ الله جلّ وعزّ من الصابرين الى علمك(٥٩٧) » . ومن الرسائل الموجزة جداً ماكتبه طاهر بن الحسين الى الخليفة المأمون بعد مقتل علي ابن عيسى بن ماهان : « كتابي الى أمير المؤمنين . ورأسُ علي بن عيسى بن ماهان بين يديّ . وخاتمه في يدي . وعسكره مُصرفٌ تحت أمري . والسلام(٥٩٨) »

والنوع الثاني من الرسائل التي شاعت في العصر العباسي . الإخوانية التي يتبادلها الأصدقاء فيما بينهم في مناسبات شتى . وكانوا يتأنقون في صياغتها ويُعنون بديباجاتها . ويسندونها بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال الصحابة والتابعين والأشعار والأمثال والحكم ... وقد اشتهر الكثيرون بها أمثال ابن المقفّع . ومحمد بن زياد الحارثي . وكُلثوم بن عمرو العتابي الذي قال عنه ابن قتيبة : « كان شاعراً محسناً . وكاتباً في الرسائل مجيداً . ولم يجتمع هذان لغيره(٥٩٩) . فمن رسائله اللطيفة ما كتبه الى أحد أصدقائه يسأله مواصلة مودته بعد جفوة وقطيعة : « لو اعتصم شوقي اليكَ بمثل سلوّكَ عنّي لم أبذلْ وَجْهَ الرغبة إليكَ . ولم أتجشّم مرارةَ تماديك . ولكن استخفتنا صبابتنا . فاحتملنا قسوتكَ . لعظيم قدْرِ مودتك . وأنت أحقُّ من اقتصّ لصلتنا من جفائه . ولشوقنا من إبطائه(٦٠٠) » .

---

(٥٩٥) البيان والتبيين ٤ : ٢٤ .

(٥٩٦) ينظر صبح الأعشى ٦ : ٤٠٠ ـ ٤٠٤ .

(٥٩٧) جمهرة رسائل العرب ٣ : ٩

(٥٩٨) المثل السائر ٢ : ٣٣٨ ، وينظر الوزراء والكتاب ص ٢٤٠ .

(٥٩٩) الشعر والشعراء ٢ : ٧٤٠ .

(٦٠٠) زهر الآداب ٢ : ٩٨٦ .

ودبَّج بعض الكتاب رسائل طريفة وسفيدة شبيهة بما يعرف الآن بالخواطر الأدبية . تناولت موضوعات كثيرة تتعلّق بالأخلاق والتهذيب والتوجيه والنصح والارشاد وشؤون الحياة المختلفة . مثل رسالة غسّان بن عبدالحميد في الأخوّة والوفاء وحفظ العهد : « أمّا بعدُ . فإنَّ الله جعلَ العباد أطواراً في أخلاقهم . كما جعلهم أطواراً في صورهم . وجعل بينهم أموراً يتآلفون عليها ويُعْملون أحلامهم فيها : مِنْ حُرَمٍ يتجاملون بها . وحقوقٍ يتنازعونها . ومودّة يتعاطونها : وأخوّة يتداولونها . ترعى بوفاء . وتؤدّى بأمانة . وتضيع بتقصير . وتُنتقص بخيانة . ليس منْ أُدّيتْ اليه فيما يحفظ منها بأسعد من المؤدّى لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه . وليس من ضُيِّعَتْ منه بأشقى ممن ضيّعها فيما يُدخِلُ من التقصير عليه . فإنَّ من أخطأه الوفاء من أخيه فانما يدخل عليه تقصير غيره . ومن ضيّع الوفاء لإخوانه فقد أدخل النقصَ في خاصّة نفسه . والمرءُ يجدُ مِن أخيهِ اذا خانه بدلاً . ولا يجد عن نفسه اذا قصّرتْ به متحوّلاً . وليس نقصٌ يستبدل به كنقصٍ لا يستطيع نزايلته(٦٠١) »